**جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي**

**ملخص محاضرات قضايا النقد الأدبي القديم**

**الأستاذ : الطاهر حسيني**

من قضايا النقد الأدبي القديم

أولا: الوضوح و الغموض في الشعر

الملخص :

الأدب إبداع سواء كان شعرا أم نثرا، و هو خطاب يتطلب مخاطَبا يوجه إليه بغرض التأثير فيه، و حتى يصل المخاطِب ) المبدع (إلى أن يجد القبول عند المتلقي و يؤثر فيه و يقنعه بما يريد إيصاله إليه لا بد أن يخاطبه بما يفهم و حتى يكون الخطاب مفهوما يشترط فيه إن يكون سلسا واضحا و على هذا الأساس فإن الأصل في الخطاب أو في الكلام عموما هو الوضوح و هو ما انتصر له العرب و دعوا إليه و عدوه من مظاهر البلاغة .

يقول أبو هلال العسكري متحدثا عن الوضوح الذي ارتبطت به البلاغة العربية: البلاغة تعني التقرب من المعنى، والتباعد من حشو الكلام، وقرب المأخذ.. ومثل هذا قال بعضهم :البلاغة تقريب ما بعد من الحكمة بأيسر الخطاب والتقرب من المعنى البعيد هو أن يعمد إلى المعنى اللطيف فيكشفه، وينفي الشواغل عنه، فيفهمه السامع من غير فكر فيه وتدبر.

نفس النهج نهجه بشر بن المعتمر الذي قال : إن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك في نفسك، على أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ المتوسطة التي لا تلطف على الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام مما تقدم يتضح جليا أن الرجل من أنصار الوضوح لذلك نحده في موضع آخر يحذر من الغموض فيقول: وإياك والتوعُّرَ، فإنّ التوعُّر يُسلمِكُ إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلكُ معانَيكَ، ويَشين ألفاظك،

ما سبق من كلام لا يعني أبدا أن الشعر العربي خلا من بعض مظاهر الغموض، فالواقع يشهد أن بعضا من أحاديث العرب و أشعارهم قد يكتنفها الغموض.

الغموض إذا ظاهرة عرفها الشعر العربي منذ العصر الجاهلي و انتبه إليها النقاد منذ زمن بعيد فماذا نعني بالغموض ؟ هل يعتبر ظاهرة بلاغية ؟ و هل هو مقبول ؟

الغموض في اللغة : قال بن منظور في تفسير مادة ) غمض( أن كل ما لم يتجه ل كنا الأمور فقد غمض عليك .

الغامض من الكلام خلاف الواضح.

غمض الشيء في الأرض إذا غاب فيها .

الغامض المنخفض من الأرض.

أما عند البلاغيين فالغموض يعني أن يكون الكلام يحتاج إلى جهد لفهم معناه و قد استحسن بعض القدماء و على رأسهم الجرجاني الغموض في الشعر و قصد به ذلك الغموض الناتج عن التعقيد الفني الذي يدل على قدرة فنية عند المبدع، فالصورة في الخطاب الشعري عنده لا بد أن تتميز بشيء من الغموض من خلال تباعد أطرافها هذا الكلام يعني أن البلاغيين يحبذون الغموض خاصة ذلك الذي يخلق عند المتلقي تلك المعاناة الفكرية التي يتلذذ بها على حد تعبير بارط عندما تحدث عن لذة النص .

و الغموض الفني إن صح التعبير لا يعني التعمية التي يغدو معها الخطاب عبارة عن طلاسم لا حل لمعرفة كنهها. و يجب أن نفهم كذلك أن الوضوح لا يعني الابتذال الذي يسقط معه الخطاب الى حد الإسفاف، يؤكد هذا الكلام أن أرسطو طاليس منذ القدم جعل التأثير النفسي مقصورا على التفكيرات العميقة أما السخيفة فإنها لا تحدث أثرا و السخيفة عنده المكشوفة التي لا تحتاج إلى فحص و جهد لمعرفة كنهها أو دلالتها .

للغموض إذا دلالة معجمية تعني اللبس الخفاء و دلالة بلاغية فنية تعني التلميح دون التصريح و بذلك يعتبر ضرورة يتطلبها العمل الإبداعي باعتباره فنا حيث تمنحه الجمالية و الاستمرارية .

في هذا يقول البحتري :

و الشعر لمح تكفي إشارته ولــيـس بالهـــذر طُــوّلــت خــطــبــه.

فليس عجيبا إذا أن نجد نماذج للغموض عند القدماء ارتبطت بمواقف معينة ففي العصر الجاهلي يمكن الوقوف على ما مدح به النابغة الذبياني النعمان بن المنذر عندما قال:  
 تراك الأرض إما متَّ خِفاً وتحيا إن حييت بها ثقيلا   
فقال له: هذا بيت إن لم تتبعه بما يوضح معناه كان إلى الهجاء أقرب . ويروى أن النابغة أعانه ابن لزهير هو كعب بن زهير بن أبي سلمى على أن يقول :  
 وذاك بأن حللت العز منها فتمنع جانبيها أن يزولا

فطابت نفس النعمان.

و من النماذج في العصر العباسي قول الشاعر المخضرم ساعدة بن جؤية يصف ثوراً:

|  |  |
| --- | --- |
| موكل بشدوف الصوم ينظرها | من المغارب، مخطوف الحشا، زرم |
|  |  |

فعند قراءة هذا البيت ، لا شك أننا نقف حائرين أمام ألفاظه ، لا ندري ماذا يريد الشاعر بهذه الألفاظ الغريبة عن مسامعنا ، و التي لا نستعملها اليوم لا في شعرنا، ولا في نثرنا، بل لا نجد لها أثرا حتى في القرآن الكريم، وعليه فإن فهمها يتطلب منا العودة إلى المعاجم ، أو كتب القدماء كالأصمعي) 121/216ه(، وأبي علي القالي)288/356ه(، هنا فقط نجد ضالتنا ، فنقرأ شرحه بقلم أبي علي القالي حيث كتب : "الشدوف: جمع شدف وهو الشخص، الصوم: شجر يشبه الناس، المغارب: الأماكن التي يتوارى فيها مخطوف الحشاء: ضامر، وزرم: قليل الرهط، أو لا يستقر بمكان". فالشاعر يصف وعلاً خائفاً لا يستقر بمكان، غلبه الجوع فضمر، وخاف من الناس فتوارى، وأبصر أشجاراً ظنها بشراً يتربصون به، فراح يرقبهم متوجساً، فهل كنا سنفهم هذا لو لم نعد إلى أبي علي القالي

يؤكد النقاد و الدارسون أن ظاهرة الغموض أصبحت تظهر بشكل أعمق في العصر العباسي و ذلك مع ظهور المحدثين ومذهبهم في الصنعة والبديع، و يعتبر أبو تمام على وجه الخصوص من أكثر الشعراء الذين ينتصرون للغموض، إذ يعرف عنه أنه يعقد المعنى، ويبالغ، ويحيل، ويبعد في الصور، ويستعمل الغريب من الألفاظ و قد تعرض جراء ذلك للانتقاد و هو ما يبرز من خلال الحوار الطريف الذي دار بينه وبين ناقديه أبي سعيد الضرير وأبي العميثل عندما استمعا إلى شعره فقالا له: لم لا تقول ما يُفهم؟ فكانت إجابته التي استُظرفت: لم لا تفهمان ما يقال؟

و من نماذج الغموض في شعر أبي تمام قوله في الخمر:

جهمية الأوصاف إلا أنهم قد لقبوها جوهر الأشياء

قصد بذلك أن هذه الخمر رقت حتى كادت تخرج من أن تكون عرضا أو جوهرا و أن تسمى شيئا إلا أنها لفخامتها و عظمة شأنها لقبت جوهر الأشياء

قال الآمدي معقبا على هذا البيت في إشارة إلى ما يعتريه من غموض:مازلت أسمع الشيوخ يقولون: هذا البيت من تخليطه ووساوسه، لأن الشعر إنما يُستحسن إذا فُهم. وهذه الأشياء التي يأتي بها منغلقة، ليست على مذهب الأولين و لا المتأخرين.

و لم سلم المتنبي من انتقاد بعض أشعاره رأى فيها النقاد غموضا فقد ذكر الثعالبي من عيوب المتنبئ استعماله لألفاظ المتصوفة، واستعمال كلماتهم المعقدة، ومعانيهم المغلقة، من مثل قوله في وصف فرس:  
 وتسعدُني في غمرة بعد غمرة سبوحٌ لها منها عليها شواهد **الغمرة:** الشدة، **والسبوح:** الفرس التي كأنها تسبح في جريها، **يقول:** وتعينني على توارد الغمرات في الحروب فرس سبوح يشهد بكرمها خصال لها منها أدلة عليها، وفي الشطر الثاني من كثرة التكرار وهو قوله لها منها عليها

و مثلما رفض قوم الغموض هناك من دعا إليه و عده ظاهرة فنية طبيعية لها دورها في النص الأدبي و الكلام عموما من هؤلاء جابر عصفور الذي يقول: للغموض غاية هي التأثير و التأثير يعني تغييرا في الأتجاه و تحولا في السلوك و البداية الأولى للتأثير هي تقديم الحقيقة تقديما يبهر المتلقي من ناحية و يبدهه ) يفاجئه ( من ناحية أخرى و ذلك أمر لا يمكن أن يتم بمجرد النظم العادي للأفكار بل يتم بضرب بارع من الصياغة تنطوي على قدر من التمويه تتخذ معه الحقائق أشكالا تخلب الألباب و تسحر العقول فتتبدى الحقائق من خلال ستار شفاف يضفي عليها أبهاما محببا يثير الفضول و يغذي التشوق إلى التعرف.

من خلال ما تقدم يتضح أن الغموض في الإبداع الأدبي تتعدد أسبابه و قد جمعها ابن سنان في ستة أقسام:

* قسمان يختصــــــــــــــــــان بالألفاظ - اللفظة الغريبة

- المشترك اللفظي

- قسمان يختصان بالألفاظ المركبة - شدة الاختصار

- انغلاق النظم

- قسمان يختصان بالمعـــــــــــــــــــــــــــنى - غموض المعنى في نفسه

- أن يحتاج المعنى إلى مقدمات

**ثانيا : السرقات الأدبية**

**الملخص:**

الأساس الذي تبنى عليه العملية النقدية و يكون تتويجا لها، هو إصدار الحكم، و عليه فإن الناقد الحق، هو من يتجرد من هوى الذات و من العواطف، و يحكم بالموضوعية، خاصة عندما يتعلق الأمر بما يمكن أن يحط من قيمة الإنسان، أو يمس كرامته الشخصية ،كما هو حادث مع ظاهرة السرقات الأدبية التي تعد من أوسع أبواب النقد و أهم قضاياه، و التي شغلت النقاد و الشعراء على السواء، و هي كذلك من أكثر قضايا النقد تعقيدا و حساسية، و قد خاض فيها النقاد و فصلوا الحديث فيها منذ القدم، فاتفقوا حولها تارة و اختلفوا تارات أخرى، و هي ظاهرة إنسانية تشهد انتشارا واسعا بين الأدباء و الشعراء، العرب و العجم، قديما و حديثا. فالقاضي الجرجاني يرى أن السرقة الأدبية داء قديم و عيب عتيق. ما تعرى منه متقدم و لا متأخر كما يقر الآمدي .

و ليسهل علينا الأمر، و نستوعب ما يقال عن السرقة الأدبية،حري بنا أن نقف أولا على المعنى اللغوي للكلمة و كذا على المعنى الاصطلاحي لها.

**المعنى اللغوي :**

السرقة في اللغة:

جاء في تاج العروس للزييدي: السارق عند العرب من جاء مستترا إلى حرز فأخذ مال غيره.

و قال بن فارس في مقاييس اللغة:السين و الراء و القاف أصل يدل على أخذ شي في خفاء و ستر يقال سرق يسرق سرقة و استرق السمع إذا تسمع مختفيا

و جاء في لسان العرب لابن منظور : قال بن عرفة في قوله تعالى: >> السارق و السارقة << السارق عند العرب من جاء مستترا إلى حرز فأخذ منه ما ليس له، فإن أخذ من ظاهر فهو مختلس و مستلب و منتهب . و المسارقة و الاستراق و التسرق : اختلاس النظر و السمع قال القطامي :

بخلت عليك فما تجود بنائل إلا اختلاس حديثها المتسرق

و قول تميم بن مقبل :

فأما سُراقات الهجـــــــــــــــــــاء فإنها كـــــــــــلام تهاداه اللئـــــــــــــــــام تهاديا

ما نلاحظه أن المعنى المستفاد مما تقدم، فيه دلالة على ما يصدر من الإنسان من صنيع غير محمود، تستهجنه الأنفس الكرام، و يأباه الطبع البشري القويم، و يعاقب عليه القانون الشرعي و الوضعي على السواء.

**المعنى الاصطلاحي :**

السرقة في الاصطلاح يعني بها إجمالا أن يأخذ شاعر كلاما من آخر سواء كان بيت شعر، أو شطر بيت، أو صورة فنية، أو حتى معنى، و قد نظر إليها النقاد نظرات مختلفة لكنها في الغالب متقاربة ففي حين نجد بن رشيق القيرواني يقول في العمدة في محاسن الشعر و آدابه،على لسان عبد الكريم النهشلي: قالوا السرق في الشعر ما نقل معناه دون لفظه و أبعد في أخذه نجد القاضي الجرجاني يقول أن السرقة تكون في ما اجتمع فيه اتفاق الألفاظ و تساوي المعاني و تماثل الأوزان .

لا يخفى على كل دارس و كل مطلع على ما كتب حول الظاهرة أن العرب وظفوا الكثير من المسميات و المصطلحات الدالة أو المشيرة إلى مصطلح السرقة الأدبية بلغت فيما يقول الدارسون مئة و خمسة و أربعين مصطلحا و إن كانت جميعها تدل على معنى الأخذ من الغير فإنه يجب الإشارة إلى أن كل مصطلح أو تسمية من هذه المسميات لها دلالة خاصة تبعا لطريقة الأخذ و التحوير الفني في اللفظ أو المعنى أو في الأسلوب و هو ما يجعل مصطلح السرقة مصطلحا فضفاضا الأمر الذي دفع النقاد إلى تقسيم السرقة إلى سرقة محضة معيبة و سرقة فنية محمودة.

**السرقات الأدبية في الأدب العربي القديم :**

يجمع النقاد و الدارسون الذين تناولوا هذه الظاهرة أنها قديمة قدم الأدب نفسه قال عنها الجرجاني أنها داء قديم و عيب عتيق و قال فيها ابن رشيق أنها باب متسع جدا لا يقدر أحد من الشعراء أن يدعي السلامة منه . و قد تنبه إليها القدماء منذ العصر الجاهلي و اعتبروها واقعا لا مناص منها و حتمية لا يتحرجون منها، خاصة عند أولئك الذين فهموها بمعنى الأخذ عن الآخر و السير على نهجه و يكفي هنا الإشارة إلى الشاعر أمرئ القيس الذي يقول :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكي الديار كما بكى بن حذام

ففي هذا البيت إشارة واضحة أن امرأ القيس يصرح باقتفاء أثر من سبقــــــه و قد أخذ عنه طريقة فنية ) البكاء على الأطلال ( . و في نفس الاتجاه سار عنترة بن شداد العبسي الذي يقول متسائلا إن ترك السابقون للاحقين مجالا للإتيان بالجديد :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

و في نفس الاتجاه كذلك سار زهير بن أبي سلمى :

ما أرانا نقــــــــــــــــــــــــــــول إلا معادا أو معادا من لفظنا مكــــــــــرورا

ما يجب ملاحظته هنا أن الشعراء المذكورين لم يوظفوا لفظة السرقة بالرغم أن ما أشاروا إليه يدخل في دائرة السرقات الشعرية كما يشير إليها التعريف الاصطلاحي المشار إليه آنفا . و أما أول من وظف كلمة السرقة و أشار بها إلى ذلك العمل المشين الذي تأباه النفس الكريمة هو الشاعر طرفة بن العبد من خلال قوله :

و لا أغير على الأشعار أسرقها عنها غُنيت و شر الناس من سرقا .

في البيت إشارة واضحة إلى اعتزاز الشاعر بنفسه و بملكته الشعرية التي تمنعه من أن يسطو على كلام غيره و فيه في نفس الوقت إشارة و لو بالتلميح إلى أن هناك من يفعل ذلك من معاصريه و حتى السابقين عليه .

الاتفاق حاصل إذا و منذ القدم أن السرقة الشعرية مذمومة و تعتبر عيبا تحط من قيمة من يقع فيها و هنا يحق لنا أن نتساءل عن أي سرقة تحدث طرفة عندما نقرأ قول امرئ القيس :

وقوفا بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسى و تجمل

ثم نقرأ قوله )طرفة( :

وقوفا بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسى و تجلد .

و الحقيقة أن نماذج السرقات في هذا العصر لا تعد و لا تحصى يشهد على ذلك ما نجده من أمثلة في كتب التراث العربي و يبدو أن أكثر الشعراء تعرضا لسرقة شعره أو ما يعبر عنه بعضهم الإغارة هو الشاعر أمرؤ القيس الذي قال :

نظرت إليك بعين جارئة حوراء حانية على طفل

أخذ منه المسيب الشطر الأول كما هو بلفظه و معناه و غير الشطر الثاني فقال :

نظرت إليك بعين جارئة في ظل باردة من السدر

و حتى النابغة الذبياني الذي كان الشعراء العرب يحتكمون إليه سقط في فخ السرقة الأدبية و قد أشار إلى ذلك أبو هلال العسكري من خلال تأكيده أن أشهر بيت للنابغة وهو :

فإنك شمس و الملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

مأخوذ من قول رجل كندة :

هو الشمس وافت يوم دجن فأفضلت على كل ضوء و الملوك كواكب .

و على كل فإن السرقات عند القدماء في هذا العصر لم تخرج عن ثلاثة أنواع :

1. سرقة الشاعر المشهور من المغمور ...زهير من قراد
2. سرقات الشعراء من امرئ القيس و هذا ما يفسر شهرة امرئ القيس و تقدمه على شعراء عصره.
3. سرقات ترجع أسبابها إلى اختلاف الروايات و شيوع الانتحال و هذا ما يسمى عند النقاد ) اجتلابا (

**أما في صدر الإسلام** و بالرغم من ظهور الدين الجديد القائم في الأساس على عقيدة التوحيد و كرم الخلق و بالرغم من جنوح الشعر إلى ما يناسب ذلك و بالرغم من انتشار النقد الأخلاقي إلا أن ظاهرة السرقات الأدبية لم تختف في الأدب العربي و لم ينج الشعراء من الوقوع فيها و قد أشار إلى ذلك القاضي الجرجاني في الوساطة عندما تحدث عن سرقة الحطيئة من النابغة الذبياني في قوله :

و ما كان بيني لو لقيتك ســــــــــــــــــــالما و بين الغنى إلا ليال قلائل

الذي يقر أنه مأخوذ من قول النابغة :

و ما كان دون الخير لو جاء سالما أبو حجر إلا ليال قلائل

و تذكر كتب الأخبار و الأدب أن النابغة الجعدي أنشد الحسن بن علي كرم الله وجهه قائلا :

الحمـــــــــــد لله لا شــــــــــــــــــــــــريك لـــــــــه من لم يقلها فنفســـــــــــــــه ظلــــــــما

فقال له الحسن يا أبا ليلى ما كنا نروي هذه الأبيات إلا لأمية بن أبي الصلت .

قال يا ابن رسول الله : والله إني لأول الناس قالها و أن السروق من سرق أمية شعره.

و كما كان الشأن في العصر الجاهلي فقد جهر شعراء باستهجانهم و رفضهم السرقات الأدبية و وقفوا منها موقف الرفض باعتبارها كما رأينا عملا غير أخلاقي خاصة في هذا العصر و قد مثل هذا الموقف حسان بن ثابت في قوله :

لا أسرق الشعراء ما نطقوا به بل لا يوافق شعرهم شعري

و الغريب أن بعض النقاد ينسبون لحسان العديد من السرقات فابن وكيع في المنصف يشير الى أن حسان سرق قوله :

و نشربها فتتركنا ملوكا و أسدا ما نهنهنا اللقاء

سرقه من قول عنترة :

فإذا سكرت فإنني مستهلك مالي و عرضي وافر لم يكلم

و إذا صحوت فما أقصر عن ندى و كما علمت شمائلي و تكرمي

و يقول بن وكيع : >> إن عنترة وفى الصحو و السكر صفتيهما و أفرد حسان الأخبار عن حال سكرهم دون صحوهم فقبض ما هو من عام المعنى لأنه قد يمكن أن يظن ظان بهم البخل و الجبن إذا صحوا لأن من شأن الخمر تسخية البخيل و تشجيع الجبان << المنصف

**و أما في عصر بني أمية** فقد أخذتظاهرة السرقات الأدبية منحى جديدا إذ البعض لا يستترون منها بل يباهون بأنهم أجادوا السرقة و لم ينتبه إليهم أحد و قد تفشى هذا الأمر بين مشاهير شعراء العصر كجرير و الفرزدق و الأخطل و قد اشتهر منهم خاصة الفرزدق حتى أنه قال : ضوال الشعر أحب إلي من ضوال الإبل و خير السرقة ما لم تقطع فيه اليد بل الأدهى من هذا أن الفرزدق ذاته و كما تروي كتب الأخبار كان يأخذ أشعار غيره عنوة فقد مر ذات يوم على الشمردل اليربوعي فسمع قوله :

ما بين من لم يعط سمعا و طاعة و بين تميم غير حـــــــــــــــــز الحلاقــــــــــم

فقال له : والله لتتركن هذا البيت أو تتركن عرضك

فقال اليربوعي : خذه على كره مني لا بارك الله فيك فجعله الفرزدق في قصيدته التي مطلعها

تحن بزوراء المدينـــــــــــــــة ناقــــــــــــــــــــــــتي حنين عجول تبتغي البوَ رائــم

**أما في العصر العباسي** الذي لا يختلف اثنان أنه من أزهى عصور الأدب و أخصبها انتاجا و أكثرها تنوعا من حيث الثقافة و الاتجاهات الفنية فقد برزت مشكلة السرقات الأدبية بصورة ملفتة لم تشهدها الحياة الأدبية عند العرب من قبل و لعل السبب في ذلك يعود الى اتساه دائرة الأدب و ظهور الجديد فيه من خلال الصراع بين القدماء و المحدثين يضاغ الى ذلك ميل كثير من الشعراء الى الصنعة خاصة أولئك الذين اعتمدوا في صقل مواهبهم على حفظ أشعار فطاحل الشعر و فحوله .

و الواقع يشهد أنه لم يسلم شاعر من شعراء هذا العصر من الاتهام بتهمة السرقة حتى أولئك الذين عدوا من أمراء الشعر . و يبدو أن بشار بن برد كان من أكثر ضحايا السرقات يشهد على ذلك كثرة ما يروى عنه في كتب الأخبار و الأدب التي ألفها القدماء حيث يروى أنه حين قال بيته المشهور :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته و فاز بالطيبات الفاتك اللهج

أخذ معناه و بعض لفظه تلميذه سلم الخاسر و قال :

من راقب الناس مات غما و فاز باللذة الجسور

و حين انتبه بشار إلى هذه السرقة قال :

يعمد إلى معاني التي سهرت فيها ليلي و أتعبت فيها فكري فيكسوها لفظا أخف من لفظي فيروى شعره و يترك شعري .

و رغم ما يتمتع به بشار من سمعة و ريادة في الشعر إلا أنه هو ذاته لم يسلم من أن يرمى بالسرقة فقد أنشد أبو عبيدة ابن عروة الضبعي قول بشار :

إدا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

فقال انما هو لعجيف العقيلي

و تروي كتب الأخبار و الأدب أيضا أن قول بشار :

جفت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار

مأخود من قول جميل :

كأن المحب قصير الجفون لطول السهاد و لم تقصر

و كذلك قوله:

و طال علي الليل حتى كأنه بليلين موصول فما يتزحزح

فهو مأخوذ من قول عدي بن الرقاع:

فكأن ليلي حين تغرب شمسه سواد آخر به موصول

و لما كان الأمر بهذه الصورة فقد انبرى العديد من النقاد في هذا العصر الى تتبع هذه الظاهرة و البحث فيها من خلال الوقوف على سرقات الشعراء بتأكيدها تارة و نفيها تارة أخرى . و الأكيد أن المطلع على كتب النقد في القديم يلاحظ كثرة المؤلفات التي تكاد تكون متخصصة في الظاهرة فقد ألف الآمدي>> الموازنة << و خصص جزءا منه للحديث عن سرقات أبي تمام و سرقات البحتري و ما قيل فيهما كما ألف أبو ضياء بشر بن تميم >> سرقات البحتري من أبي تمام << و ألف أحمد بن أبي طاهر >> سرقات أبي تمام << و ألف بن المعتز >> سرقات الشعراء<<

و إذا كان الشعراء الذين دارت حولهم المعارك النقدية المتعلقة بالسرقات كثيرين كبشار و أبي تمام و البحتري و أبي نواس فإن أبا الطيب المتنبي يعتبر أكثر الشعراء لفتا للانتباه نظرا للعدد الهائل من الكتب التي الفت حوله و حول سرقاته كالإبانة عن سرقات المتنبي لأبي سعيد محمد بن أحمد العميدي و سرقات المتنبي و مشكل معانيه لأبي بسام النحوي و الوساطة بين المتنبي و خصومه للجرجاني و المنصف للسارق و المسروق منه في إظهار سرقات أبي الطيب المتنبي لابن وكيع .

آراء القدماء في السرقات

تعددت آراء الشعراء و النقاد على السواء في هذه الظاهرة و إليك بعضها مختصرة .

سئل الشاعر أبو عمر ابن العلاء أرأيت الشاعرين يتفقان في المعنى و يتواردان في اللفظ لم يلق واحد منهما صاحبه و لم يسمع شعره قال :

تلك عقول رجال توافت على ألسنتها .

و سئل أبو الطيب المتنبي السؤال نفسه فقال :

الشعر جادة و ربما وقع الحافر على الحافر .

من خلال الرأيين السابقين نلاحظ أن الشاعرين لم يوظفا لفظة السرقة، كما نلاحظ أنهما يعتقدان إمكانية التشابه بين الشعراء حتى إن لم يلتقيا و لم يسمع أحدهما شعر الآخر و هذا ما يعرف بتوارد الخواطر و خلاصة القول هنا أن ليس كل تشابه في الكلام يعتبر سرقة.

و أما ابن طباطبا ) 322( و هو أحد نقاد العصر العباسي و صاحب كتاب عيار الشعر فيرى أن ما يقال أنه سرقة ليس من السرقة بل سماه المعاني المشتركة و لم يعتبره عيبا حيث قال : إذا تناول الشاعر المعاني التي قد سبق إليها فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يعب بل وجب له فضل لطفه و إحسانه فيه .

بل أكثر من ذلك يقترح على من ينهج هذا النهج طريقة تخفي سرقته عن النقاد كأن ينقل المسروق من الغزل الى المدح و ان كان في وصف فرس جعله في وصف إنسان و ان كان في النثر نقله الى الشعر يقول : و يحتاج من سلك هذا السبيل الى الحيلة و تدقيق النظر في تناول المعاني و استعارتها و تلبيسها حتى تخفى على نقادها البصراء بها و يتفرد بشهرتها كأنه غير مسبوق إليها ...يكون كالصانع الذي يذيب الذهب و الفضة المصوغتين فيعيد صياغتهما بأحسن مما كانا عليه .

و أما أبو هلال العسكري صاحب كتاب >> كتاب الصناعتين << فجاء رأيه معتدلا إذ لم يوظف كلمة السرقات بل عبر بعبارة حسن الأخذ و هو لا يمانع من أن يأخذ أحد عن أحد شريطة أن يحسن الأخذ حيث يقول : ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمه و الصب على قوالب من سبقهم و لكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا من عندهم و يبرزوها في معارض من تأليفهم و يوردوها في غير حليتها الأولى و يزيدوها في حسن تأليفها و جودة تركيبها و كمال حليتها و معرضها فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبق إليها .

العيب إذا في نظر الرجلين أن يأخذ المتأخر من المتقدم اللفظ و المعنى أو أن يأخذ فيفسد فيبدو اللاحق أضعف و أقبح من السابق.

و يرى الآمدي أن سرقات المعاني ليست من كبير مساوئ الشعراء و بالأخص المتأخرين فعنده أن السرقات باب ما تعرى منه متقدم و لا متأخر و السرق عنده لا يكون إلا في البديع المخترع لا في المعاني المشتركة .أو الألفاظ المنقولة المتداولة .

و في الأخير لا بد من التنويه أن التقارب في البيئة و الزمن يعتبر من العوامل المساعدة على التقارب أو الاتفاق في المعاني كما أن حفظ شعر الآخرين يعمل على ترسيخ بعض المعاني في الذهن و تثبيتها في النفس فليس عجيبا أن تأتي كما هي أو يشبهها على اللسان.

**ثالثا الطبع و الصنعة :**

**الملخص:**

تعتبر قضية الطبع و الصنعة من القضايا ذات الصلة الوثيقة بعالم الشعر و إبداعه فهي -كما يرى الدكتور مصطفى درواش في كتابه خطاب الطبع و الصنعة - من المفاهيم النقدية التي رافقت عملية الإبداع الشعري و حاولت تحديد معالمها و ضبط أسسها. و عليه فقد اهتم بها الرواة و الأدباء و شغلت بال الدارسين و النقاد منذ القدم. و الأمر في هذا الشأن لا يتوقف عند العرب وحدهم بل يمتد إلى الأمم الأخرى .

و يعتقد كثير من النقاد أن أرسطو هو أول من أشار إلى هذه القضية و تناولها بالدراسة في كتابه فن الشعر حيث قال : إنا متكلمون الآن في صناعة الشعر و أنواعها و مخبرون أي قوة لكل واحد منها .

تماشيا مع نفس النهج الذي نهجناه من قبل في حديثنا عن القضايا النقدية سنحاول في البداية أن نقف عند المفهوم اللغوي و الاصطلاحي للفظتي الطبع و الصنعة .

الطبع في اللغة :

في لسان العرب الطبع الخليقة و السجية و طبعه الله على الأمر فطره عليه .و جاء على لسان الدكتور مصطفى درواش أن الجرجاني ) علي بن محمد بن علي( في كتابه التعريفات يقرب مفهوم الطبع من المفهوم الغيبي الذي تنحسر فيه إرادة الإنسان بل تتوارى : الطبع ما يقع على الإنسان بغير إرادة و قيل الطبع بالسكون الجبلة التي خلق الإنسان عليها كما يطلق المعجم الوسيط السليقة على الطبيعة أي الإفصاح الطبيعي دون تعلم أو جهد أو مكابدة .

الصنعة في اللغة :

جاء في لسان العرب صنعه يصنعه فهو مصنوع و صنع عمله، قال تعالى : صنع الله الذي أتقن كل شيء . فصيغة صنع في لسان العرب جاءت للدلالة على العمل بمهارة و حذق يقال امرأة صناع اليد أي حاذقة ماهرة بعمل اليدين . و أما في المعجم الأدبي فالصنعة تعني كل علم أو فن مارسه الإنسان حتى يمهر فيه يصبح حرفة له .

الطبع إذا قوة فطرية و معنى فطرية مخلوقة مع الإنسان يمكن أن نقول عنها موهبة و هي ملكة تساعد الشاعر أو المبدع عموما على القول دون عناء . و أما الصنعة فهي الجهد الذي يبذله المبدع لينتج إبداعا و هي بعبارة أخرى تحصيل الأديب على علوم قديمة بعينها، ومحاكاة الفحول، بالممارسة والمران، حتّى يكسب أسلوباً مميّزاً في إنشاء الأدب، وهي ذلك الجهد المصقول، الذي تجسّده براعة اختيار الألفاظ أو صياغة الكلام وتوشيته بضروب البديع، وإثرائه بالطريف من الأخيلة والمعاني.

الأصل في الإبداع إذا الموهبة و هذه الموهبة لا يكون لها قيمة حقيقية إلا إذا تمت تنميتها بالدربة و الممارسة و المران . و لقد تفطن القدماء إلى قيمة الطبع و الصنعة و علاقتها بالإبداع يؤكد ذلك ما جاء في صحيفة بشر بن المعتمر حين كتب موجها و ناصحا للأدباء : خذ من نفسك ساعة نشاطك و فراغ بالك و إجابتها إياك فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهراً ، وأشرفُ حسباً ، وأحسن في الإسماع، وأحلى في الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغُرة من لف شريف ومعنى بديع ، واعلم أن تلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة ، وبالتكلف والمعاودة".

الطبع و الصنعة في النقد القديم:

يكاد الاتفاق يكون تاما بين الدارسين و النقاد أن قضية الطبع و الصنعة طفت إلى السطح و برزت بصورة ملفتة في العصر العباسي العصر الذي شهد ازدهارا و تنوعا كبيرين في الإنتاج الأدبي فتعددت القضايا و تنوعت الاتجاهات و كثرت الخصومات بين الأدباء تارة و بين النقاد تارات أخرى كما شهد هذا العصر انفتاح العرب على ثقافات الأمم الأخرى التي أصبح لها وجودها و تجلى تأثيرها من خلال ما كان من توجه تجديدي قاده الشعراء المولدون الذين لم يكونوا من أصول عربية قحة، و كان نتيجة ذلك ظهور ما يعرف بالحركة الشعوبية التي ثار روادها على كل ما هو عربي الأمر الذي أنتج الحركة المعاكسة المتمثلة في أنصار العروبة هذا الوضع نتج عنه لأمر فتح نوافذ كثيرة للنقاد بين مناصر للقديم و داع للتجديد .

انطلاقا من الحركة الشعوبية انطلق الجاحظ)159/255ه( للحديث عن قضية الطبع و الصنعة فكان من أكبر المناصرين للطبع فقد ذهب إلى أن كل شيء لعرب البداوة إنما هو بديهة وارتجال،يأتي دون معاناة أو مكابدة، أو إجالة فكرة أو استعانة، فما هو إلا أن يصرف البدوي همه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة والمناقلة أو عند صراخ..... فتأتيه المعاني أرسالا )أفواجا( وتنثال عليه الألفاظ انثيالا لا يقيدها على نفسها، ولا يفكر فيها، أو يتأمل حال ورودها عليه، أو حال وعيه بها، ومن ثم لا يعلمها أحدا من ولده.

و عليه فالجاحظ يعتبر بيان العرب طبعا، بينما يرى أن بيان الأعاجم ناتج عن طول فكر، و اجتهاد رأي، و طول خلوة، و عن مشاورة و معاونة، و عن طول التفكر و دراسة الكتب . و حكاية الثاني علم الأول و زيادة الثالث في علم الثاني حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم

لكن الجاحظ في هذه القضية و على غير العادة يبدو أن كلامه هذا جاء كرد فعل على أولئك الذين وقفوا موقف العداء ضد كل ما هو عربي أعني بهم المولدين الذين ثاروا على كل ما هو قديم . نقول هذا الكلام لأن هذا الموقف نجد له ما يناقضه عند الجاحظ عندما نقرأ قوله : و من الشعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا أمثال زهير و الحطيئة و غيرهما من الذين يوصفون بعبيد الشعر . و لا شك أن بقاء القصيدة حولا دون أن تخرج للمتلقي يعني إعادة النظر فيها بالتنقيح و التصحيح و المراقبة و مثل هكذا جهد، لا شك أنه يتنافى مع الطبع الذي تحدث عنه من قبل .

و الأكيد أن هذا الاتجاه سبقه إليه الأصمعي )121/216ه(الذي يرى أن المطبوع من الشعراء من سمح بالشعر و اقتدر على القوافي و أراك في صدر بيته عجزه و في فاتحته قافيته و تبينت على شعره رونق الطبع و وشي الغريزة إذا امتحن لم يتلعثم .

ما يجب الانتباه إليه أن الواقع يفرض علينا اليوم أن لا ننظر الى الشعر وفق هذا التقسيم )مطبوع مصنوع( خاصة عندما يتعلق الأمر بالعصر العباسي الذي اشتد فيه الصراع بين طرفي القديم و الحديث لأن كثيرا من أشعار العباسيين الذين يصنفون ضمن دائرة شعراء الصنعة عندما نعمن النظر في أشعارهم نجد أنها تبلغ من الجمال و الروعة ما يجعلها من عيون الشعر العربي بل أكثر من ذلك أن الشاعر الواحد يتفاوت التعبير الفني عنده تبعا لظروف الإبداع و الهدف منه و أبرز مثال على ذلك بشار بن برد

يروى أن خلادا بن مهرويه قال له ذات يوم : إنك تجيء الشيء المتفاوت بينما تقول شعرا يثير النقع ويخلع القلوب ، مثل قولك :

إذا ما غَضِبنا غَضْبة مُضريّة هتكْنا حجابَ الشمسِ أو نُمطر الدما

إذ بك تقول :

ربَابةُ ربة البيتِ تَصب الخل في الزيتِ

لها عشْرُ دجاجات وديك حسن الصوت

فقال له بشار : لكل وجه وموضع ، فالقول الأول جد ، وهذا قلته في جاريتي ربابة، وأنا لا آكل البيض من السوق ، وربابة تجمع لي البيض، فإذا أنشد هذا حرصتْ على جمع البيض، فهذا عندها أحسن من قفا نبك و لو أنشدتها من النمط الأول ما فهمته . و في نفس هذا المعنى كثيرا ما يورد النقاد عبارة :إنما الشاعر المطبوع كالبحر مرة يقذف صدفة و مرة يقذف جيفة.هذا يعني أن التصنع ليس عيبا و لا ضعفا و على هذا الأساس لا يتحرج بعض الشعراء من التصريح بتصنعهم فهذا عدي بن الرقاع ) 95ه( يقول:

و قصيدة قد بت أجمع شملها حتى أقوم ميلها و سنادها

نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافـــــــــه منآدها

و قال بشار في نفس الاتجاه ردا على من سأله بم فقت أهل عصرك ؟

قال : لأني لم أقبل كل ما تورده قريحتي و يناجيني به طبعي و يبعثه فكري ، ونظرت إلى مغارس الفطن، ومعادن الحقائق، ولطائف التشبيهات، فسرت إليها بفهم جيد، وغريزة قوية، فأحكمت سبرها، وانتقيت حُرّها، و كشفت عن حقائقها، واحترزت من متكلفها، ولا والله ما ملك قيادي قط الإعجابُ بشيء مما آتي به.

و قد عالج النقاد المغاربة هذه القضية و اتجهوا فيها اتجاها قريبا من الاتجاه الذي سار عليه النقاد المشارقة فالحصري تحدث عن قضية الطبع و الصنعة قائلا :الكلام الجيد الطبع مقبول في السمع قريب المصال بعيد المنال أنيق الديباجة رقيق الزجاجة يدنو من فهم سامعه كدنوه من فهم صانعه و المصنوع مثقف الكعوب معتدل الأنبوب يطرد ماء البديع على جنباته و يجول رونق الحسن في صفحاته ...

الحصري من خلال ما تقدم تحدث عن المطبوع كما تحدث عن المصنوع فالمطبوع عنده تقبله النفس و يرتاح له الخاطر و يجدله مكانا في القلب بجودته و عذوبة لفظه و رقق معانيه أما المصنوع من الكلام فما جاد بالتنقيح و تزين بالصور و تحلى بالبديع بشرط عدم الإفراط الذي يؤدي إلى التكلف الذي ينبذه النقاد جميعهم .

أما ابن رشيق القيرواني فقد خص قضية الطبع و الصنعة بباب خاص في كتابه العمدة و اعتبر المطبوع هو الأصل و الدفقة الشعورية الأولى التي تأتي للشاعر بعفوية حيث يقول : المطبوع هو الأصل الذي وضع أولا و عليه المدار . بينما اعتبر المصنوع قسمين الأول صنعة عفوية و الثاني تصنع و افتعال و في هذا يقول : و المصنوع و إن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفا تكلف إشعار المولدين لكن وقع فيه بهذا النوع الذي سموه الصنعة من غير قصد لكن بطباع القوم عفوا فاستحسنوه و مالوا إليه بعض الميل بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح و التثقيف خوفا من التعقب .

و يقر ابن رشيق أن من المصنوع ما يروق للنفس و يقبله العقل و يطيب له الخاطر يتجلى ذلك من خلال ما أبداه من إعجاب بأبيات أبي ذؤيب الهذلي التي قال فيها :

فوردن و العيوق مقعد رابىء الض ضرباء فوق النظـــــــــــــــم لا يتتلــــــــــــــع

فشرعن في حجرات عـــــــــــذب بارد حصب البطاح تغيب فيه الأكرع

فشــــــــــــــــربن ثم سمعن حسا دونـــــــــــــــه شرف الحجاب و ريب قرع يقرع

فنكـــــــــرنه فنفــــــــــرن و امترست بـــــــــه سطعاء هاديــــــــــة و هاد جرشــــــــع

و يعلق على هذه الأبيات بقوله : فأنت ترى هذا النسق كيف اطرد له و لم ينحل عقده و لا اختل بناؤه و لولا ثقافة الشاعر و مراعاته إياه لما تمكن هذا التمكن و لا شك أن طريقة التعبير و الاعتماد على الحركية من خلال مجموعة من الأفعال: فوردن فشرعن سمعن . و انطلاقا من هذا قال بن رشيق أن العرب استحسنت مثل هذه الصنعة التي نلحظها في هذه الأبيات التي تدل على جودة شعر الرجل و صدق حسه و صفاء خاطره و خلاصة القول أن جودة الشعر عند ابن رشيق و جماله تأتي من الجمع بين الطبع و الصنعة و هو الرأي الذي يرتضيه أغلب النقاد القدماء منهم و المحدثون.

|  |
| --- |
|  |
|  |  |

**رابعا المؤثرات الأجنبية في النقد العربي القديم**

الملخص:

المعروف عند كل دارس للأدب العربي أن الحياة الفكرية و الأدبية في العصر العباسي ازدهرت و تطورت بصورة لم تعرف لها مثيلا من قبل و لا شك أن انفتاح العرب على غيرهم من الأمم في هذا العصر و احتكاكهم بثقافات متعددة و متنوعة كان له الأثر البالغ في مختلف مجالات حياتهم وقد نتج عن كل ذلك جديد ظهرت تجلياته في تغير الأذواق الفنية و تعدد الاتجاهات الأدبية و النقدية.

لقد تأثر العرب في هذا العصر بشكل عام بثقافات أجنبية عديدة : يونانية و هندية و سريانية و فارسية و لو أن الواقع يشهد أن هذا التأثير كان بدرجات متفاوتة تبعا لطبيعة الثقافة و قيمتها و مدى إقبال العرب عليها .

في البداية لا بد من الإشارة أن التأثر و التأثير بين الأمم و الشعوب ظاهرة طبيعية و صحية في نفس الوقت و تتماشى مع منطق الحياة و قوانينها و لا أظن أن هناك مجالا للحياة لمن يعتقد أو يزعم أنه قادر على العيش دون أن يحتاج إلى الآخر إذ المؤكد أن المعرفة الإنسانية بمختلف مجالاتها و بمختلف علومها، التجريبية منها و الإنسانية على السواء، هي بناء لكل أمة فيه لبنة . فليس عجيبا إذا أن يتأثر العرب في جميع المجالات بغيرهم من الأمم و قديما و حديثا و ليس عجيبا أن يكون لهم تأثيرهم في غيرهم كذلك. و الذي يهمنا اليوم في هذا المقام تأثر النقد العربي القديم بالنقد الأجنبي .

من الطبيعي أن يتجلى التأثير النقدي الأجنبي في النقد العربي بصورة جلية في العصر العباسي العصر الذي بلغ فيه العرب أوج تقدمهم و ازدهارهم و قد ساعد على ذلك اتساع دائرة الترجمة و النقل التي يعتبرها النقاد المصدر الأول للتأثير الأجنبي في النقد العربي القديم و الأمر هنا يتعلق خاصة بما ترجم من ثقافة اليونانيين و فلسفتهم و قصص الهنود و روحانياتهم و أدب الفرس و زخرفاتهم .

لا يختلف اثنان أن من أبرز الكتب المترجمة و التي كان لها أثرها الكبير في النقد العربي القديم كتابا فن الشعر و فن الخطابة لأرسطو الفيلسوف اليوناني الشهير الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد ، وقد تتلمذ على يد أفلاطون ، وتخرج من مدرسة " الأكاديمية " ، وفي الأكاديمية عالج الأدب والشعر ؛ فنظم بعض الأشعار التي تدل على سعة خياله وعمق فهمه للصناعة الشعرية ، وفي أكاديمية أفلاطون أيضاً كتب بعض الرسائل الصغيرة التي اعتمد فيها أسلوب الحوار الأفلاطوني ، وقد ألف العديد من المؤلفات في المنطق والجدل والأخلاق والسياسة والعلوم الطبيعية .. ، ومن أشهر كتبه في الأدب والنقد : كتاب الشعر Poetica و كتاب الخطابة. Rhetorica وهو صاحب مذهب فلسفي يسمى مذهب المشَّائين ،نسبة إلى طريقته في إلقاء محاضراته ؛ إذ المعروف أن أرسطو كان يلقى محاضراته وهو يمشى بين تلاميذه .

أما كتابه الخطابة" - ريطوريقا - فقد درس فيه الخطابة اليونانية دراسة وصفية تحليلية استطاع من خلالها أن بين من خلالها الضوابط الفنية والأسلوبية لفن الخطابة والصفات التي ينبغي توافرها في الخطيب ، وجاء حديثه عن الخطابة في ثلاث مقالات كبيرة.

في المقالة الأولى تحدث عن الخطابة من حيث فائدتها و غايتها السامية المتمثلة أساسا في نشر الحق و نصرته و الاستماتة في الدفاع عنه و عن أهله. و في المقالة الثانية ركز حديثه عن العواطف و الانفعالات التي يكون عليها الجمهور المستهدف و ضرورة التركيز عليها و احترامها من قبل الخطيب الذي يجب عليه أن يكون فطنا يعرف كيف يتصرف نحوها و لن يكون له ذلك إلا باحترام الأعمار و العقول و الحالات النفسية ما يساعده على التأثير في المتلقي و الوصول إليه و إقناعه بما يريد إيصاله من أفكار . و أما في المقالة الثالثة فقد تحدث عن الخطبة و عن عناصرها الأساسية التي تبنى عليها و عن العبارة و كيفية بنائها و عن الأسلوب و ما يجب أن يتوفر فيه من جمال و دقة و وضوح.

أما كتابه فن الشعر فدارت مادته حول الشعر و صناعته، حيث بدأه بتعريف الشعر بأنه ضرب من ضروب المحاكاة، ثم تحدث عن أنواع المحاكاة في الفنون المختلفة، وبين اختلاف تلك الفنون حسب اختلاف موضوعاتها ، ثم تحدث عن أسلوب المحاكاة في كل منها ، ثم استغرق بقية صفحات كتابة في الحديث عن المأساة على وجه الخصوص.

و نظرا لأهمية هذا الكتاب و مكانته عند النقاد العرب فقد ترجم إلى العربية من قبل العديد من النقاد القدماء يأتي على رأسهم إسحاق بن حنين المتوفى في العام 298ه كما ترجمه أبو بشر متي المتوفى في العام348ه كما ترجمه يحي بن عدي المتوفى في العام 364ه و لم يكتف العرب بالترجمة فقط بل لخصوه و من الذين لخصوه الكندي المتوفى في العام252ه و الفارابي المتوفى في العام 339 و ابن سينا المتوفى في العام 428ه و كذلك فعل ابن الهيثم المتوفى في العام 432ه و ابن رشد المتوفى في العام 595ه.

إلا أن ما يجب الإشارة إليه هنا هو أن بعض هذه الترجمات لم تكن موفقة و هو ما أشار إليه الدكتور إحسان عباس بقوله عن ترجمة أبي عمر متي : يستطيع القارئ أن يحكم بأنها ترجمة رديئة تدل على أن بين المترجم و النص حجابا من عدم الفهم ..فبعضها مغلق لا يفهم أبدا لقصور التعبير عن أداء الفكرة قصورا تاما

لقد عاش هذا الكتاب في كنف الحضارة العربية الإسلامية ما يقارب ثلاثة قرون من الزمن و هذه الفترة الطويلة لا تدع أي مجال للشك في أن العرب تأثروا بهذا المصنف نقول هذا الكلام بالنظر لما نلمسه من عدم التصريح المباشر للنقاد العرب القدماء بهذا التأثر الأمر الذي يعطي لنا مشروعية أن نسأل و نبحث عن أسباب ذلك

يأتينا الرد على لسان داود سلوم حيث يلخص عوامل ذلك في :

* أن النقاد العرب و أدباؤهم أخفوا تأثرهم بالدراسات الأدبية اليونانية حرصا على سمعة العرب حيث أرادوا أن يثبتوا أن العرب يملكون ما يملك غيرهم من العجم من أصالة الرأي التي تقيهم ذل الاستعانة بغيرهم و يبدو واضحا هنا الأثر السياسي في هذا الموقف الذي لا يخرج عن الصراع بين العرب و الشعوبيين.
* أما العامل الثاني فيتعلق بالجانب الديني باعتبار أن العرب استغلوا الدراسات اللغوية و النقدية و البلاغية في إيضاح القرآن و تفسيره و الدفاع عن إعجازه و فصاحته و قوة بيانه و روعة أسلوبه لذلك يجد العرب أنفسهم في حرج إن اعتمدوا على الفكر الأجنبي الذي تتجلى فيه علامات الشرك و الوثنية .
* و يضيف داود سلوم عاملا آخر يتمثل كما يرى في غرور بعض النقاد و محاولة إظهار أنفسهم مبدعين مجددين مؤثرين لا متأثرين خاصة أولئك الذين عاشوا في المراحل الأولى قبل أن تنتشر كتب اليونانيين و غيرهم بين الدارسين .

لعل هذا الوضع هو الذي دفع الدكتور إحسان عباس أن يعتقد أن هذه الثقافات المختلفة لم تترك آثارا عميقة في البلاغة و النقد .

من مظاهر تأثير النقد اليوناني في الأدب العربي ما نجده عند الفارابي حيث يشير إحسان عباس إلى علاقة الرجل بالفلسفة اليونانية التي تتجلى في رسالته التي عنونها بـــــــــــــ >> رسالة في قوانين صناعة الشعر <<هذه الرسالة اعتبرها تلخيصا لجزئيات من كتاب فن الشعر يقول الفرابي فهذه هي أصناف أشعار اليونانيين و معانيها على ما تناهى إلينا من العارفين بأشعارهم و على ما وجدناه في الأقاويل المنسوبة الى الحكيم أرسطو في صناعة الشعر و إلى ثامسطيوس و غيرهما من القدماء المفسرين لكتبهم .

و عندما تحدث الفارابي عن تباين الشعراء في مقدرتهم على المحاكاة فكلامه يحيل مباشرة إلى قول أرسطو حين يقول و على ذلك انقسم هذا الشعر قسمين مختلفين لتباين شخصيات أصحابه الشعراء فمن كانت نفوسهم وقورة شامخة اختاروا للمحاكاة أعمال الشخصيات السامية و مغامراتها بينما صور الشعراء الفكهون شخصيات الأراذل و المحتقرين

**خامسا : قضية الانتحال:**

تعتبر قضية الانتحال من أكبر القضايا النقدية التي شغلت بال النقاد قديما و أخذت حيزا كبيرا في مؤلفاتهم النقدية خاصة عند ابن سلام و الجاحظ ،و هي قضية من الواجب على دارس النقد و الأدب عموما الإلمام بها و معرفة أسبابها و آراء النقاد فيها و لعله من المفيد قبل الخوض في هذه القضية و تتبعها أن نقف على المفهوم أو المقصود بهذه القضية منطلقين من المعنى اللغوي للكلمة .

جاء في مادة » ن ح ل«  في لسان العرب: و النحلة : الدعوى .انتحل فلان شعر فلان أو قول فلان إذا ادعاه أنه قائله. و تنحله : ادعاه و هو لغيره. قال بن هرمة : و لم اتنحل الأشعار فبها و لم تعجزني المًدحُ الجيادُ . و نحلته القول أنحله نحلا إذا أضفت اليه قولا قاله غيره. قال الأعشى :

كيف أنا و انتحالي القوا ف بعد المشيب كفى ذاك عارا

و قيدني الشعر في بيته كما قيــــــــــــــــــــــــــد الآسرات الحمارا 1

من خلال ما تقد يتضح جليا أن المعنى اللغوي للكلمة لا يبتعد عن المعني الاصطلاحي إذ أن المقصود بقضية الانتحال في الشعر هو أن ننسب لشاعر شعرا ليس هو قائله و هذه القضية تعتبر من أخطر القضايا فهي من جهة تثير التساؤل عن حقيقة الشعر الجاهلي و من جهة أخرى تمس بمصداقية الرواة الذين رووا هذ الشعر .

1. ينظر ، لسان العرب ،مادة – ن ح ل - ،ص: 4369

و الحقيقة أن هذه القضية ليست قصرا على الشعر العربي وحده بل تتعداه الى شعر غيرنا من الأمم فمثلما >> نحل الشعر في الأمة اليونانية و الأمة الرومانية من قبل و حمل على القدماء من شعرائهما و انخدع به الناس و آمنوا به<< 1 كذلك كان الشأن عند الشعراء العرب منذ العصر الجاهلي و قد تنبه الى ذلك النقاد القدماء و على رأسهم ابن سلام الجمحي) 232 ه( كما أسلفنا، و الذي يعتبره الدارسون أول من تنبه لهذه القضية و خاض فيها في كتابه : طبقات فحول الشعراء .

و يبدو أن ابن سلام انتبه الى هذه الظاهرة انطلاقا من مبدأ الشك بصورته الإيجابية أو ما يعرف بالشك

الديكارتي نسبة الى ديكارت \* و هو الشك المعتمد للوصول الى الحقيقة . لقد لاحظ ابن سلام أن الأشعار المنسوبة لبعض الشعراء خاصة الجاهليين منهم ، متفاوتة من حيث:

* الجودة و قوة السبك و حسن التعبير
* اختلاف ترتيب الأبيات من رواية الى أخرى
* اختلاف الروايات في مفرداتها و تراكيبها

-ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

-1 طه حسين ، في الأدب الجاهلي ،مطبعة فاروق القاهرة،ط3،1933،ص:115

\*- رينيه ديكارت Rène Descartes 1594/1660 فيلسوف و رياضي فرنسي يلقب بأبي الفلسفة ، هو صاحب مقولة : أنا أفكر إذا أنا موجود و صاحب مبدأ : الشك أساس

و ذلك ما رجح فرضية أن هناك أبيات نسبت لهذا أو لذاك عن طريق الخطأ أو لحاجة في نفس يعقوب كما يقال. انطلاقا من كل ذلك >> تصدى ابن سلام في مقدمته الى ضروب الانتحال و أسبابه فدون في ذلك نظرات لم يطورها من جاء بعده من النقاد و مؤرخي الأدب<< .1 هذا الكلام فيه اعتراف بفضل ابن سلام في إثارة هذه القضية و التنبيه اليها وبذلك يكون قد قدم خدمة جليلة للأدب و النقد العربيين على السواء .

و الأكيد أن ظاهرة بهذا المستوى لا يمكن أن تأتي من فراغ أو تأتي هكذا دون قصد إذ لا بد من وجود أسباب و دواع حتمتها أو دفعت الرواة اليها و تلك هي الحقيقة التي أقرها الدارسون و النقاد الذين أرجعوا الأمر فيها الى مجموعة من الأسباب منها :

**العصبية القبلية**: هذا العامل يمكن أن نعتبره عاملا سياسيا لأنه يتعلق بالعلاقة بين القبائل العربية قبل بزوغ فجر الاسلام حيث كان العرب يعيشون على شكل قبائل متنقلة لا تستقر بمكان و كان بين هذه القبائل مناوشات و حروب دائمة لا تكاد تنطفئ نار حرب حتى تظهر نار حرب أخرى فالقبيلة العربية حينها كانت إما مغيرة أو مغار عليها و قد كان لكل فبيلة شاعر يعتبر لسان حال قومها يذكر أيامهم و يفتخر بأمجادهم يدافع عنهم و يوجه سهام هجائه لأعدائهم و قد انتقل هذا الشعر من السلف الى الخلف شفاهة على لسان رواة الشعر و لما جاء الاسلام توقف هذا النوع من الشعر المتميز بالعصبية القبلية ليحل محله الشعر المتشبع يالثقافة الاسلامنية في مقابل الشعر المتكئ على الشرك و الكفر و بقي الصراع بين هذين الاتجاهين طوال مدة الخلافة الراشدة و لكا آل أمر الخلافة لبني أمية عادت العصبية القبلية من

1- إحسان عباس ، المرجع السابق ، ص: 79.

جديد و راحت كل قبيلة تجد لتثبيت مكانتها و ترسيخ قيمتها في هرم السلطة من خلال بعث ماضي أمجادها من خلال أشعار شعرائها فمنها التي وجدت ضالتها و منها من لم تجد يقول ابن سلام في هذا الصدد: >> فلما راجعت العرب رواية الشعر و ذكر أيامها و مآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم و ما ذهب من ذكر وقائعهم و أشعارهم و أرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع و الأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار << 1

يبدو واضحا مما تقدم أن العصبية القبلية و الرغبة في إيجاد المكانة السياسية كانا من الأسباب التي دفعت العرب إلى أن ينسبوا للشعراء ما ليس لهم فقد كانت قريش من أقل العرب شعرا في الجاهلية فاضطرها ذلك أن تكون أكثر العرب نحلا له في الإسلام 2 .يقول ابن سلام في هذا الأمر:>> و أشعرهم حسان بن ثابت هو كثير الشعر جيده و قد حمل عليه ما لم يحمل على أحد لما تعاهضت\* قريش و استبت وضعوا عليه أشعارا كثيرة لا تليق به << 3.

**العامل الديني:** يعتبر الدكتور طه حسين من أشهر من تحدث عن هذا العامل في العصر الحديث و كان قبله ابن سلام الجمحي قد تحدث عن القصاصين الذين حاولوا تفسير ما وجدوا في القرآن الكريم من قصص و أخبار الأمم البائدة كعاد و ثمود بالاعتماد على ما جاء في الشعر الجاهلي حيث يرى أن هؤلاء قد نحلوا شعرا للجاهليين لم يقولوه و لم يتفوهوا به و يشير بن سلام هنا صراحة إلى

1. محمد بن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، دار الكتب العلمية بيروت ،دط،2001،ص:39.
2. - محمد صايل حمدان،عبد المعطي نمر موسى،معاذ السرطاوي، قضايا النقد القديم، دار الأمل للنشر و التوزيع، ألأردن أربد،ط1 ، 1990، ص: 9.

* بمعنى تناهشوا و رمى بعضهم بعضا بالبهتان و الكذب.

1. ابن سلام، المصدر السابق، ص:87.

ابن إسحاق حين يقول: >> كان ممن الشعر و أفسده و حمل منه كل غثاء محمد ابن إسحاق مولى

آل مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف و كان من أعلم الناس بالسير فنقل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها و يقول : لا علم لي بالشعر إنما أوتى به فأحمله و لم يكن ذلك له عذرا فكتب في السير من أشعار الرجال ثم جوز ذلك إلى عاد و ثمود أفلا يرجع إلى نفسه فيقول :قد حمل هذا الشعر و من أداه منذ ألوف السنين و الله يقول :) وأنه أهلك عادا الأولى و ثمود فما أبقى ( و قال في عاد :) فهل ترى لهم من باقية ( و قال: ) و عادا و ثمود و الذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله( . يمثل هذا النص المأخوذ من كتاب الطبقات موقف ابن سلام من ابن اسحاق و رده على ما أتى به من خلال توظيف القرآن الكريم رغبة منه في اقناع المتلقي بوجهة نظره و التأكيد على صحتها . و مما يروى عند الدارسين لهذه الظاهرة و الذي يعتبرونه نموذجا للانتحال ما جاء في كتاب قضايا النقد الأدبي القديم حيث يؤكد مؤلفوه >> أن كثيرا من الشعر قد نحل على الجاهليين حاولوا من خلاله تفسير بعض القصص القرآني و من الطريف أن نقرأ في بعض المصادر القديمة شعرا قيل على لسان الجن فعندما قرأ الرواة سورة الجن التي أنبأت أن الجن استمعوا للنبي صلى الله عليه و سلم و هو يتلوا القرآن الكريم فلانت قلوبهم و آمنوا بالله و رسوله و قرؤوا في هذه السورة الكريمة أن الجن كانوا يصعدون في السماء يسترقون السمع فما كان من الرواة الا أن صاغوا شعرا على لسان الجن و من ذلك أنهم رووا أشعارا قالته ) هكذا ( الجن تفخر بقتل سعد بن عبادة \* و من هذا الشعر :

قد قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة

و رمينا بسهــــــــــــــمين فلم تخطئ فؤاد<< 1

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

\*هو سعد بن دليم بن حارثة ) ت14ه ( تروي بعض كتب التاريخ أن الجن قتلته بينما كان واقفا يتبول.

1- محمد صايل و آخرون ، المرجع السابق، ص:13.

**الرواة و نحل الشعر**: **الرواة و نحل الشعر**:

الشعر الجاهلي كما نعلم تناقلته الألسن عن طريق المشافهة و قد تخصص في هذا قوم عرفوا في التاريخ الأدبي بالرواة و الرواة هم أولئك الذين يحفظون أشعار السابقين عليهم و يشيعونها بين معاصريهم رغبة في وصولها للاحقين بعدهم و الرواة عند النقاد صنفان : منهم مم هم من العرب القح و منهم من هم من الموالي و لعل من أشهر الرواة الذين تناقلت كتب الأدب أخبارهم و فصلت في الحديث عنهم حماد بن سلمة المعروف بحماد الراوية و خلف الأحمر و عمر بن العلاء و المفضل الضبي و كذلك الأصمعي و قد عرف عن حماد و خلف بالخصوص قوة الذاكرة و سرعة الحفظ و حسن نظم الشعر. و إذا كان حماد من الكوفة و فيها اشتهر فإن خلف فقد كان من أهل البصرة وفيها اشتهر كذلك. و قد كان في نفس مستوى صاحبه في قوة الذاكرة و سرعة الحفظ و حسن نظم الشعر و يبدو أن هناك شبه اتفاق بين الدارسين و النقاد القدماء أن الرجلين عرفا بالكذب و اشتهرا بالانتحال حتى أصبح الشعر تجارة بالنسبة إليهما ، فلا عجب أن نجد المفضل الضبي يقول: >> أن حمادا أفسد الشعر إفسادا لا يصلح بعده أبدا << 2. و في نفس المعنى قال فيه بن سلام >> و كان أول مكن جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية و كان غير موثوق به ينحل شعر الرجل غيره و يزيد في الأشعار<< 3

و رغم أن ابن سلام شكك في مصداقية حماد و أكد على نحله الشعر إلا أنه لم ينتبه إلى نحله في بعض المواطن مما يدل على قدرة الرجل و تمكنه يدل على ذلك >> أن ابن سلام نفسه انخدع عن هذا الشعر المنحول فأورد أشعارا لطافة من الشعراء ادعى أنها أقدم ما قالته العرب من الشعر الصحيح فأورد أبياتا نسبها إلى أعصر بن سعد بن قيس غيلان . يقول ابن سلام :

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

1. محمد صايل و آخرون، المرجع السابق ص: 15.
2. نفسه،ص:13.

و قال أعصر بن سعد بن غيلان :

قالت عميرة ما لرأسك بعد ما نفذ الزمان أتى بلون منكــــــــــــــــــر

أعمير إن أباك شيب رأســــــــــــــه كر الليالي و اختلاف الأعصر

و بهذا البيت سمي أعصر و قد قالت قوم يعصر و ليس بشيئ . و لعل الناظر إلى القرائن التاريخية يدرك كيف أن ابن سلام انخدع بهذا الشعر فمن المعلروف أن اعصر هو سعد بن قيسبن عيلان بن الياس بن مضر بن نزار بن معد و أعصر هذا إن عاش فقد عاش قبل الاسلام في العصر الضي كان يعيش فيه موسى بن عمران أي قبل المسيح بقرون عدة . و مثل ذلك ذكره لشعر قاله سعد بن زيد في تميم و ادعى ابن سلام أنه من صحيح الشعر :

أوردها سعد و سعد مشتمل ما هكذا تورد يا سعد الإبل

فلم يصل إلينا من أخبار الرجل شيء و لعل العرب أرادوا بذلك أن يفسروا بعض الأمثال و منها المثل القائل : ما هكذا تورد الإبل يا سعد.<< 1.

و لم يكن ابن سلام الوحيد الذي تناول قضية الانتحال و تحدث عن الشعر المنحول فالجاحظ كذلك أدلى بدلوه في القضية و أشار إلى شيء مهم في القضية و هي محاولة البعض بهرجة الشعر و نسبته إلى فطاحل الشعراء رغبة منهم في البحث عن الشاهد و من النماذج التي أشار إليها الجاحظ و اعتمد فيها على الدليل الداخلي ليثبت الانتحال ما رواه عن قول الشاعر الجاهلي الأفوه الأودي ) صلاءة بن عمر بن مالك المتوفى سنة 50 قبل الهجرة ( :

كشهاب القذف يرميكم به فارس في كفه للحرب نار

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

1- محمد صايل و آخرون، المرجع السابق،ص: 17.

حيث يرى الجاحظ أن البيت منحول و لا يمكن أن يقوله شاعر جاهلي معتمدا على أن ما جاء فيه لا يمكن أن يقوله الا من أدرك الإسلام و سمع القرآن الكريم حيث يعلق قائلا : >> و بعد فمن أين علم الأفوه أن الشهب التي يراها إنما هي قذف و رجم و هو جاهلي و لم يدع هذا أحد قط إلا المسلمون <<2

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

2 – عن كتاب الحيوان ، نفسه،ص:1

**سادس : أثر المعتزلة في النقد الأدبي**

بعد أن وقفنا عند المؤثرات الأجنبية في النقد العربي القديم و رأينا كيف تأثر العرب بثقافات الأمم الأخرى كالفارسية و الهندية و اليونانية من خلال ترجمة العديد من المؤلفات التي ألفها علماء و نقاد و أدباء هذه الأمم خاصة كتابي فن الخطابة و فن الشعر لأرسطو اللذين ترجما في العصر العباسي العصر الذي شهد تنوعا في المعارف و تعددا في الاتجاهات و تباينا في وجهات النظر في القضايا المطروحة حينئذ .و الأكيد أن القرآن الكريم باعتباره معجزة الرسول صلى الله عليه و سلم كان ميدانا شاسعا للدراسات و النقاشات و المناظرات خاصة عند ما يعرف في التاريخ الإسلامي بالفرق الكلامية التي داع صيتها ازدهر نشاطها في هذا العصر من خلال ما كان بينها من نقاشات و مجادلات و مناظرات مست العقائد و البلاغة و البيان و فنون الكلام عامة .

يأتي على رأس هذه الفرق فرقة المعتزلة التي تميزت بأصالتها و تأثرها بفلسفة و فكر الأمم الأخرى و استفادتها منها ، و قد كان لهده الفرقة - أعني المعتزلة – دور كبير في المجال الفكري و البلاغي و النقدي و هذا ما سنحاول الوقوف عليه في هذه العجالة متوخين الاختصار و البساطة.

**المعتزلة النشأة الطبيعة و التسمية :**

نزل القرآن و بزغ فجر الإسلام في بيئة بسيطة هي بيئة الجزيرة العربية ، أين كانت تعيش أمة العرب ببساطة حياتها، و سطحية فكرها ، فكان حتما أن يكون خطاب الإسلام من خلال القرآن الكريم، خطابا للفطرة يناسب فطرة المخـــــــــــــــــــــاطب و بساطة عقله و حياته، بعيدا عن التعقيد و الفلسفة ؛ إذ لو فعل ذلك لاستعصى على الناس فهمه و الاقتناع به و لنفروا منه و هجروه.

و ليس معنى البساطة هنا ما يمكن أن يتوهمه البعض من سطحية في القرآن الكريم، و سذاجة في الفكر الإسلامي بل كان ذلك عن قصد و لحكمة أرادها الله تعالى؛ لأن لا أحد ينكر ما في القرآن الكريم من آيات عظيمات تتطلب عمق الفكر و جدلية الخطاب و سمو مستوى النقاش من خلال إجهاد العقل و عمق التفكير .الأمر هنا يتعلق بتلك الآيات التي تتعلق بقضية القضاء و القدر و الجبر و الاختيار و خلق القرآن و تلك التي تنزه الله عن الشبه و الأخرى إلي تنسب إليه اليد و العين..أعني تلك الآيات التي تسمى بالمتشابهات التي يكثر حولها الخلاف و يشتد حول مضامينها النقاش. و المعلوم أن مثل هذه الآيات لم يخض فيها المتقدمون و لم يتجادل فيها الأئمة في المراحل الأولى لظهور الإسلام استجابة لتوجيهات الرسول صلى الله عليه و سلم حينها الذي روى عنه الرواة بعض الأحاديث في النهي عن اتباع المتشابه و عن الجدال فيها و في المسائل الغيبية و العقائدية الفلسفية . و قد ورد أن النبي صلى الله عليه و سلم خرج من مجلس قوم و هم يختصمون في القدر فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب فقال: " بهذا أمرتم ؟ ! أو لهذا خلقتم تضربون القرآن بعضه ببعض !! بهذا هلكت الأمم قبلكم " و على هذا الأساس عندما سئل الإمام مالك عن الاستواء كان في رده دلالة واضحة على الحرج في الخوض في الموضوع و الجدال فيه حيث قال : الاستواء معلوم و الإيمان به واجب و الكيفية مجهولة و السؤال فيه بدعة .و قد كان الإمام ابن حنبل ون أكثر العلماء معارضة للمتكلمين ؛ فقد اعتبر من يخوض في مثل هذه المسائل – المقصود هنا علماء المتكلمين – زنادقة جاء في " التفرقة بين الإسلام و الزندقة " للغزالي أن ابن حنبل قال: لا يفلح صاحب كلام أبدا ، علماء الكلام زنادقة.

يرى الباحثون في قضايا الفرق الكلامية أنه بمجرد ظهور الخلافات السياسية مع نهاية خلافة عثمان رضي الله عنه طفت إلى السطح خلافات عقائدية و دينية ما أنتج و ضعا صعبا اختلف فيه القوم و تجادلوا حوله إن كان قضاء و قدرا أم أنه من فعل الإنسان فبرزت بذلك قضية الجبر و الاختيار التي تعتبر من ،أكبر القضايا التي خاضت فيها الفرق الكلامية التي اشتهرت منها فرقة عرفت في التاريخ الإسلامي بالمعتزلة .

و المعتزلة كما جاء في المعجم الأدبي لجبور عبد النور :هي فرقة من المتكلمين اعتمدت العقل في تأييد القضايا الدينية كما اعتمدت العقل و قدمته على النقل في تأسيس العقيدة و النظر لكل ما يتعلق بها.

ظهرت هذه الفرقة في العصر الأموي و اشتد عودها و قوي نشاطها و كثر إتباعها و انتشر فكرها في العصر العباسي و الأكيد أن هناك ظروفا حضارية و تاريخية كانت وراء ظهور المعتزلة و انتشار فكرها خاصة في نهاية القرن الأول حيث انتشر الإسلام و اتسعت رقعته و دخلت فيه أمم عديدة و أجناس مختلفة و دخلت معها ثقافات متنوعة، منها ما تميزت بمنطقها و عمق فكرها و فلسفتها، و هو ما أثر في الحياة العقلية عند المسلمين فرأى البعض أن المنهج النقلي التقليدي لم يعد يفي حاجات المسلمين العقلية في جدالهم، فمالوا إلى المنهج العقلي الذي تبنته أهم المذاهب و الفرق الكلامية التي يأتي على رأسها المعتزلة الذين يعتبرون أكثر المتكلمين إغراقا و اعتمادا على العقل.

و لقد اخنلف المؤرخون في بواعث ظهورهم و سر تسميتهم، ففي حين يرى البعض أن هذه التسمية أطلقت على أولئك الذين خالفوا الإمام علي كرم الله وجهه كسعد بن أبي وقاص و عبد الله بن عمر بن الخطاب و أسامة بن زيد و امتنعوا عن محاربته أو المحاربة معه واعتزلوا المتخاصمين و الفتنة القائمة.في ذلك يقول أبو محمّد الحسن بن موسي النوبختي من أعلام القرن الثالث في كتابه " فرق الشيعة» عند البحث عن الأحداث الواقعة بعد قتل عثمان: «فلمّا قُتِل بايع الناس عليّاً فسمّوا الجماعة، ثمّ افترقوا بعد ذلك و صاروا ثلاث فرق: فرقة أقامت علي ولايته عليه السلام ، وفرقة خالفت عليّاً وهم طلحة والزبير و عائشة، وفرقة اعتزلت مع سعد بن مالك وهو سعد بن أبي وقّاص، وعبد الله بن عمر بن الخطّاب، ومحمّد بن مسلمة الأنصاري، و أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي مولي رسول اللّه صلَّي الله عليه و آله و سلَّم فإنّ هؤلاء اعتزلوا عن علي عليه السلام وامتنعوا عن محاربته والمحاربة معه بعد دخولهم في بيعته والرضا به. فسمّوا المعتزلة، وصاروا أسلاف المعتزلة إلي آخر الأبد، وقالوا: لا يحلّ قتال عليّ ولا القتال معه. "

يرى آخرون أن الاعتزال حدث بسبب الاختلاف في بعض الأحكام الدينية كالحكم على مرتكب الكبيرة ، يمثل هذا الرأي أولئك الذين يكيلون الى الرواية الشائعة في اعتزال واصل بن عطاء عن مجلس شيخه الحسن البصري في حادثة الحكم على مرتكب الكبيرة حين اعتبره ليس كافرا و تقول الرواية أن واصلا لم يرقه هذا الحكم و قال أنه في منزلة بين المنزلتين؛ أي ليس بمؤمن و ليس بكافر و بسبب هذا اعتزل مجلس الحسن البصري و كون لنفسه حلقة دراسية و يقال حين ذاك أن الحسن البصري أطلق عبارة اعتزلنا واصل.

**المعتزلة و النقد الأدبي:**

أن الباحث في مسيرة النقد الأدبي القديم عند العرب يلاحظ أن المعتزلة اهتموا بالنقد اهتماما بالغا ؛ فالدوائر الاعتزالية -كما يرى الدكتور إحسان عباس في كتابه تاريخ النقد الأدبي عند العرب – كانت من أكثر المهتمين بالنقد سواء منه ما تناول الخطابة أم ما تناول الشعر .

والمعلوم أن تركيز المعتزلة كان منصبا في الأساس على الجانب البلاغي وهذا الأمر يعتبر طبيعيا يتماشى مع طبيعة المعتزلة وطريقتهم في تناول الأمور والجدال فيها ويمكن تفسير ذلك بعاملين اثنين:

**أولا**: اعتقادهم أن البلاغة عنصر هام في الإقناع الذي تتطلبه مواقف الجدل حيث تبرز الحاجة للتأثير والإقناع وعلى هذا الأساس فإن علماء المعتزلة كانوا معلمي بلاغة بالدرجة الأولى مثلما كان السفسطائيون عند اليونان والواقع يشهد كما يرى الجاحظ أن كبار المتكلمين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء ويؤكد ذلك بشهادته لثمامة بن أشرس المعتزلي بقوله: وما علمت انه كان في زمانه قروي ولا بلدي كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما قد بلغه وكان لفظه في وزن إشارته ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك. مثل هذا الكلام يضعنا أمام مفهوم الهنود للبلاغة حيث أن قيمة الكلام وقمة البلاغة عندهم ألا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة....ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم.

**ثانيا:** إيمان المعتزلة أن الشعر العربي الذي يعتبر ديوان أمة العرب هو أكبر مصدر من مصادر المعرفة يشتى أنواعها إذ من خلاله لمكننا الوقوف على الحيوان و الأنواء و النباتات و الأطعمة و العادات و التقاليدكما لمكن للشعر بمفهومه البسيط طبعا أن يكزن زعاء نصب فيه ما نريد ؛ فقد نظم الشعراء قصائد في الحيوان كما فعل شر بن المعتمر،كما نظمت فيه أخرى في المعارف كما فعل الناشئ الأكبر " أبو العباس عبد الله بن محمد المعروف ابن شرشير المتوفى في العام 293 ه " الذي نظم على حد زعم الكثيرين قصيدة في الفنون و المعارف و الأدب بلغت أربعة آلاف بيت ،كما أتاح لصفوان الأنصاري (ت 180ه) و الذي يعتبر من أبرز شعراء المعتزلة أن يتحدث في ثنايا قصائده عن الفلوات و النار و الأرض كقوله:

و في جوفها للعبد أستر منزل و في ظهرها يقضي فرائضــــــــــه العبد

تمج لفاظ الملح مجا و تصطفي سبائك لا تصدأ و أن قدم العهد

و حسن القول و القدرة على التعبير و التأثير فواصل ابن عطاء بلغ درجة من فن القول لم يبلغها غيره و يكفي هنا الإشارة إلى أنه كان لا يحسن طق الراء فكان يطرحها من كلامه و لا ينتب و تروي لنا كتب الأخبار و الأدب العديد من القصص التي تبرز بحق قوة هؤلاء في البلاغة ه لذلك أحد قال عنه المبرد في كتابه الكامل : " كان واصل بن عطاء أحد الأعاجيب ذلك أنه كان ألثغ قبيح اللثعة في الراء فكان يخلص كلامه من الراء و لا يفطن لذلك لاقتداره و سهولة ألفاظه وقد امتحن في ذلك فقيل له كيف تقول أسرع الفرس فرد بعفوية :ألبد الجواد و قيل له كيفَ تقولُ: جرَّ رمحَه، وركبَ فرَسَه، وأمرَ الأميرُ بحفر بئر على قارعة الطّريق؟ فقال دون تردد أو إعمال فكر: سحبَ ذَابلَه، وامتطى جوادَه، وأوجبَ الخليفةُ نقْبَ قليب على الجادّة .

و يروى عن ابراهيم بن سيار بن هانئ البصري المعروف بالنظام المتوفي في العام 221 ه الكثير في هذا الصدد من ذلك ما رواه ابن نباتة في كتابه سرح العيون و الجاحظ في الحيوان أنه دخل و هو صغير على الخليل بن أحمد و في يده قدح من زجاج فقال له :صف هذه الزجاجة ، فقال : بمدح أم بذم؟ قال :بمدح قال :تريك القذى ، و لا تقبل الأذى ، و لا تستر ما وراءها. قال فذمها فقال:يسرع اليها الكسر و لا تقبل الجبر . ثم نظر من حوله و سقط بصره على نخلة فقال: صف لي هذه النخلة قال: بمدح أم بذم؟ قال: بمدح فقال : حلو جناها، باسق منتهاها،ناضر أعلاها. فذمها قال :صعبة المرتقى،بعيدة المجتنى،محفوفة بالأذى. جينها قال الخليل : يا بني، نحن الى التعلم منك أحوج.

و من كان هذا شأنه طفلا فليس عجيبا أن يكون بعد ذلك علما من أعلام الاعتزال و ليس عجيبا أن تكون له آراء نقدية قيمة تبنى عليها نظرات و نظريات نقدية عند غيره.و الواقع يشهد أن الرجل كان شاعرا و أديبا بليغا و كان من رجالات الكلام في البصرة ، كما كان له فكر نقدي متميز و يرى الدارسون أنه - أعني النظام – أدخل الشعر في الحديث عن القضايا الكلامية ، و قد تأثر في حديثه عن الشعر و قضاياه بآراء و أفكار أرسطو الواردة في كتابه فن الشعر التي رد على بعضها و انتقدها.

و من أشهر الذين كان لهم دورهم في تطور النقد الأدبي أبو العباس الناشىء (ت 293)الذي كان هو الآخر شاعرا و أديبا مجيدا و ناقدا بارعا يكفي دلالة على ذلك كتابه " تفضيل الشعر " الذي خصه لنقد الشعر و الشعراء و بلغ في ذلك مستوى جعل – كما ذكر وليد قصاب في كتابه "التراث النقدي و البلاغي للمعتزلة "أبا حيان يقول فيه: ما أصبت أحدا تكلم في نقد الشعر و توصيفه أحسن مما تكلم به الناشىء المتكلم . و قد تحدث الناشىء في هذا الكتاب عن الشعر و قدم آراء في قضاياه بعد أن عرفه و عرف أغراضه و حدد مقاييسها و الملفت في الرجل أنه صاغ بعض آرائه شعرا من ذلك قوله:

لعن الله صنعة الشعر، ماذا من صنوف الجهال فيها لقينا؟  
يؤثرون الغريب منه على ما كــــــــــــــــــان سهلاً للسامعين مبينا   
ويرون المحال شيئاً صحيحا وخسيس المــــــــــــــقال شيئاً ثميناً  
يجهلون الصواب منه، ولا يد رون للجهل أنهم يجهــــــــــــــــــــلونا  
فهم عند من سوانا يلامــــــــــــــــــــــــــو ن، وفي الحق عندنا يــــــعذرونا  
إنما الشعر ما تناسب في النظ م، وإن كان في الصفات فنونا  
فأتى بعضه يشاكل بعضــــــــــــــــــــــاً قد أقامت لــــه الصدور المتونا  
كل معنى أتاك منه علـــــــــــــــى ما تتمنى لو لم يكن أن يــــــــــــــكونا  
فتناهى عن البيـــــــــــــــــــــــان إلى أن كاد حسناً يبين للناظــــــــــــــــــــــرينا  
فكان الألفاظ فيــــــــــــــه وجــــــــــــــــــــــــوه والمعاني ركبن فيه عيـــــــــــــونا  
فائتاً في المرام حسب الأمــــــــــاني فيجلــــــــي بحسنه المنشـــــــــــدينا  
فإذا ما مدحت بالشـــــــــــــــــــــــــــعر حرا رمت فيه مــــــذاهب المسهبينا

و من الكتب التي لامست النقد حتى من خلال عناوينها و التي تعتبر من المصادر التي لا يستغني عنها الباحث و الدارس للنقد الأدبي القديم و اللغة العربية كتاب " الزينة في الكلمات الإسلامية و العربية " لأبي حاتم بن أحمد الرازي (ت 322ه ) الكتاب الذي جمع فيه الألفاظ العربية التي تغيرت دلالتها عما كانت عليه في الجاهلية و يستشهد هيه بالقرن الكريم و الحديث الشريف و أشعار العرب و لم يتوقف الكتاب عند هذا الحد فحسب بل تناول قضايا شتى تتعلق بالنحو و العروض و الأوزان الشعرية و فيه كذلك تحديد لمفهوم الشعر و أهميته في حياة العرب و دوره في التأثير في المتلقي و قيمته في الاحتجاج به في تفسير القرآن.

و لأبي الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري (ت 382 )رسالة جاءت تحت عنوان : " في التفصيل بين يلاغني العرب و العجم " و تتجلى القيمة النقدية لهذه الرسالة من كونها تتحدث عن ماهية الشعر لا من حيث ربطه بالوزن و القافية كما كان سائدا حينها بل تعدت ذلك للحديث عن الدلالة و الإيقاع و الصياغة.....فالشعر عنده لم يعد وزنا و قافية بل أصبح فنا و جمالية صياغة و أسلوبا و دفقات شعورية يضاف الى كل ذلك حديث عن التشبيه و الاستعارة و غيرهما مما يتصل بالبلاغة عند العرب و عند العجم .

و من الذين كان لمؤلفاتهم تأثير كبير في النقد علي بن عيسى الرماني ( ت 384ه ) الذي ألف رسالة و صلت إلينا تحا عنوان :" النكت في إعجاز القرآن " التي يرى الدارسون و المهتمون بالبحث في أثر المعتزلة في النقد الأدبي أنها ذات تأثير كبير في الدرس البلاغي و النقدي عند العرب من بعده تبرز قيمتها النقدية خاصة في حديثها عن المستويات الصوتية و الإيقاعية في تلاؤم الحروف في التأليف و حديثها كذلك عن الفرق بين القافية في الشعر و الفاصلة في القرآن.

و مهما يكن الأمر فإن هذه الكتب جميعها جاءت مادتها ملتصقة بالقرآن الكريم تفسيرا تارة و توضيحا و استشهاد تارة أخرى.

و من أبرز الكتب التي يتجلى فيها حضور القرآن الكريم كمادة للدراسة كتاب القاضي عبد الجبار المعتزلي ( ت415ه ) المعنون بــــــ" تنزيه القرآن عن المطاعن " الذي – كما هو واضح من العنوان – جاء ردا على من يطعن و عليه نجده يقف وقفات مطولة عند المتشابه من الآيات التي أثارت جدلا كبيرا محاولا تفسيرها و تأويلها من منطقه الاعتزالي المرتكز على الأصول التي يعتمد عليها المعتزلة : التوحيد / العدل/ الوعد و الوعيد/ المنزلة بين المنزلتين/الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر.